مقيا س : اثنولوجيا الهجرة

السنة الثالثة انتروبولوجيا

لماذا اثنولوجيا وليس انثروبولوجيا ؟

ارتبط مطلح "الاثنولوجيا" بتقليد فرنسي خاص برز في القرن التاسع عشر بدراسة الشعوب الموسومة "بالبدائية" من حيث تطورها في التاريخ وحركيتها في الزمان , انها دراسة لكل مايتعلق بالشعوب التي لم تصل الى الحضارة بالمفهوم الغربي , انها تقابل مصطلح اخر عمل به في جزء من الاطلسي (في الولايات المتحدة الامريكية) وهو الانتروبولوجيا الثقافية رغم اختلاف المقاربة وزاوية النظر (اختصت الانتروبولوجية الامريكية بعالم الرموز والمعاني , في حين اهتمت الاتنولوجيا الفرنسية بالمؤسسات الاجتماعية عند "الاخر" البعيد) , وبقى هذا التقسيم المفاهيمي الى غاية الخمسينات من القرن الماضي , وبتاثير من –كلود ليفي ستراوس– الذي تاثر بالمناخ الثقافي الامريكي وادخل مصطلح "الانتروبولوجيا "الى الساحة الفكرية الفرنسية لوصف تلك الدراسة التي تتناول الانسان في شموليته زمانيا ومكانيا . ونتيجة لزوال المجتمعات المتخلفة والتي كانت الموضوع الاساس للانتروبولوجيا الكلاسيكية , طرح سؤال ابستمولوجي حول مصير هذا العلم في ظل زوال موضوعه. هذا الموضوع وبسبب مجموعة عوامل سياسية , ثقافية واقتصادية سيقاسم "الانا" الغربي مكانه بفعل الهجرات التي اتخذت من الشمال وجهة , وبالتالي اصبح لزاما على الاثنولوجيا استخدام خبرتها في دراسة الاثنيات المكونة للجسم الاجتماعي الغربي , ان مصطلحات "العرق" "الاثنيات" "العنصرية " "التثاقف" "الاندماج " "التكيف" شكلت خزانة مفاهيمية "لاتنولوجيا الهجرة" التي انكبت على دراسة الحركيات الخاصة بمجموعة المهاجرين في مسارها الكلي , بعبارة اخرى انها تهتم : 1–انتقال المهاجرين من بلد الانطلاق الى بلد الوصول 2–تاثيرهم على بلد الانطلاق 3–تاثيرهم على بلد الوصول , بخلاف

الانتروبولوجيا الحضرية التي اهتمت بالمهاجرين باعتبارهم جزء من المدينة .كما يمكن اعتبار مساهمة الحركة الفكرية الفرنسية في دراسة المهاجرين كسبب اخر في ارتباط الهجرة بكل المفاهيم الدائرة في الفلك الفرنسي على غرار "الاتنولوجيا"

نقد لبيبليوغرافيا انتروبولوجيا الهجرة :

قبل الولوج إلى البيبليوغرافيا الخاصة بانتروبولوجيا الهجرة ، وجبت الإشارة إلى نقطة فارقة مرتبطة أساسا بالاستعمالات المختلفة لهذا العلم الناشئ في الحقول الأكاديمية الغربية ، ففي فرنسا مثلا طغى مصطلح الاتنولوجيا للدلالة على الدراسات المهتمة بالشعوب و الموسومة "بالبدائية" من حيث تطورها في التاريخ وحركيتها في الزمان ، إنها دراسة لكل ما يتعلق بالشعوب التي لم تصل إلى الحضارة بالمفهوم الغربي ، إنها تقابل مصطلح آخر عمل به في جزء من الأطلسي (في الولايات المتحدة الأمريكية) وهو الانتروبولوجيا الثقافية رغم اختلاف المقاربة وزاوية النظر (اختصت الانتروبولوجية الأمريكية بعالم الرموز والمعاني ، في حين اهتمت الاتنولوجيا الفرنسية بالمؤسسات الاجتماعية عند "الآخر" البعيد) , وبقى هذا التقسيم ألمفاهيمي الى غاية الخمسينات من القرن الماضي , وبتأثير من **–كلود ليفي ستراوس**– الذي تأثر بالمناخ الثقافي الأمريكي وادخل مصطلح "الانتروبولوجيا "الى الساحة الفكرية الفرنسية لوصف تلك الدراسة التي تتناول الإنسان في شموليته زمنيا ومكانيا . ونتيجة لزوال المجتمعات المتخلفة والتي كانت الموضوع الأساس للانتروبولوجيا الكلاسيكية , طرح سؤال ابستمولوجي حول مصير هذا العلم في ظل زوال موضوعه. هذا الموضوع وبسبب مجموعة عوامل سياسية , ثقافية واقتصادية سيقاسم "الأنا" الغربي مكانه بفعل الهجرات التي اتخذت من الشمال وجهة , وبالتالي أصبح لزاما على الاثنولوجيا استخدام خبرتها في دراسة الاثنيات المكونة للجسم الاجتماعي الغربي . إن مصطلحات "العرق" "الاثنيات" "العنصرية " "التثاقف" "الاندماج " "التكيف" شكلت خزانة مفاهيمية "لاتنولوجيا الهجرة" التي انكبت على دراسة الحركيات الخاصة بمجموعة المهاجرين في مسارها الكلي , بعبارة أخرى إنها تهتم : 1–انتقال المهاجرين من بلد الانطلاق إلى بلد الوصول 2–تأثيرهم على بلد الانطلاق 3–تأثيرهم على بلد الوصول , بخلاف

الانتروبولوجيا الحضرية التي اهتمت بالمهاجرين باعتبارهم جزء من المدينة .كما يمكن اعتبار مساهمة الحركة الفكرية الفرنسية في دراسة المهاجرين كسبب آخر في ارتباط الهجرة بكل المفاهيم الدائرة في الفلك الفرنسي على غرار "الاتنولوجيا" ، وبالتالي فالحديث عن بيبليوغرافيا خاصة فقط بانتروبولوجيا الهجرة فيه نوع من التسرع الذي يقود حتما إلى إقصاء مجالات واسعة هي في الأساس في صلب معادلة انتروبولوجيا الهجرة ، نتكلم هنا بصورة واضحة عن الانتروبولوجيا الأمريكية بتشعباتها المختلفة ، والتي تضم فروعا تبدوا الآن بعيدة نوعا ما عن هذا

الاختصاص ، نتكلم مثلا عن علم الآثار أو مجال اللغويات ، الاختصاصات التي أخذت منذ زمن طريقها بمقاربات مختلفة كليا عن المقاربة الانتروبولوجية التي تولي العناية للمعنى وتدخل في التفاصيل الدقيقة التي تمنح للحياة وجها آخر. مناسبة هذا الحديث هو محاولة وضع موضوع بيبليوغرافيا انتروبولوجيا الهجرة في المكان الصحيح وإزالة كل لبس يمكن أن يشكل عقبة أمام مراجعة بيبليوغرافية تفي بالغرض.

الملاحظة الأخرى التي تستدعي التأكيد هو أن الهجرة كموضوع للانتروبولوجيا حديث نسبيا ، ولم يأخذ الحيز الهام من الاهتمام . في فرنسا مثلا سننتظر الى غاية بداية النصف الثاني من القرن العشرين لنرى اولى محاولات فهم ظاهرة الهجرة من قبل الانتروبولوجيين ، على خلاف الولايات المتحدة التي سبقت فرنسا بعقود خاصة مع انكباب باحثي مدرسة شيكاغو على دراسة المهاجرين بالاعتماد على تقنية الملاحظة بالمشاركة . إن هذا التأخر في التناول انعكس بصورة واضحة على الكم البيبليوغرافي الخاص بموضوع الهجرة وبانعكاساتها المختلفة على سير حيوات الأناس ، وانعكس كذلك على عمل الباحثين الانتروبولوجيين الذين أصبح لزاما عليهم إذا أرادوا البحث في دهاليز الهجرات الاتكاء على علوم أخرى كان لها السبق في محاولة الكشف على أسرار الهجرة ، نقصد هنا بصورة خاصة "علم التاريخ" و"علم الآثار"اللذان أوليا عناية خاصة بجملة الحركات البشرية التي غيرت مجرى التاريخ ، وبالتالي فبيبليوغرافيا انتروبولوجيا الهجرة لا يمكن أن تستغني بأي حال من الأحوال عن الكتب التاريخية خاصة الكلاسيكية منها التي تناولت تاريخ الهجرات الإنسانية الكبرى ، نتكلم هنا مثلا عن الإغريقي "**هيرودوتس**"(تقريبا 500سنة ق م) والذي اعتبره بعض المؤرخين "كأب الانتروبولوجيا" " بكتابه **(التواريخ)** والذي بوصفه لأكثر من 50 شعبا (من بلاد الفرس مرورا بالمصريين ووصولا إلى شعب الليبو الساكن شمال إفريقيا) ، وقد حاول عبر هذا الكتاب التعرض إلى أصول السكان ، والى مختلف الهجرات الكبرى التي ساهمت في تغير الخريطة البشرية حينا بالتقارب ، وفي أحايين أخرى بالتباعد، ورغم الطبيعة التأملية للحضارة الإغريقية وإغراقها في المثالية إلا أن "**هيرودوتس**" في دراسته غاص في الواقع ونقله كما رآه ، لقد كان موضوعي إلى ابعد الحدود ولم يبق حبيس ذاته . مؤرخ آخر سطع نجمه في العصر الهلنستي هو "**بوليبيوس**" **(203قم –123قم)** له كتاب ضخم بعنوان "**صعود الإمبراطورية الرومانية** " وحاول فيه وضع تاريخ لمنطقة البحر المتوسط بالتعرض إلى جل التحولات البشرية التي مرت بها بالاعتماد خاصة على أدب الرحلة والملاحظات الشخصية . اسم أخر لا يمكن الاستغناء عنه في أي دراسة تاريخية أو انتروبولوجية هو "**ابن خلدون** " **(1332م–1406م)** وكتابه "**العبر وديوان المبتدأ والخبر في معرفة أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**" وهو مصدر مهم لأي باحث في تاريخ وحركيات المجتمعات خاصة الشمال

افريقيـــــــــة حيث عاش ومات .

النصف الثاني من القرن التاسع عشر بدأ عصر الانتقال من الممارسة الانتروبولوجية إلى الطابع العلمي للاتنوغرافيا ، حيث اتضاح الموضوع وتبني منهج وتقنية لهذا العلم ، ما عرف "بالإنسان البدائي" سيكون اساس جل دراسات الانتروبولوجية الكلاسيكية ، كل ما يتعلق بهذا الإنسان سيضعه الانتروبولوجيون في صلب اهتماماتهم وستبرز مصطلحات متعلقة بالتداخل الذي حدث تاريخيا بين جل الجماعات البشرية سواء عن طريق الهجرات او الحروب ، رواد المدرسة التطورية ومع رغبتهم في إثبات صحة نظريتهم حاولوا التأكيد على مركزية الغرب ودوره في خلق نموذج للتطور قابل للإعادة بشرط تتبع نفس المسار . مصطلح العرق الذي سيشكل فيما بعد لبنة من لبنات خطاب انتروبولوجيي الهجرة برز في هذه الفترة بفعل مغالاة التطوريين في مدح "الرجل الأبيض". ومع انكبابهم لفهم مصطلح الثقافة ، برزت الحاجة الى تتبع العناصر الثقافية ومحاولة إظهار مصدرها .هذا الخطاب افرز حاجات جديدة منها تتبع مسارات هجرات الأفراد ودورها في تغيير أو تأكيد عناصر ثقافية قديمة ، نتكلم هنا مثلا عن مؤلف "**لويس مورغان**" والمعنون ب "**المجتمع القديم** " (1877م) .الرد سيأتي من المدرسة الانتشارية التي انتقدت مركزية الغرب ، وأرجعت انتشار العناصر الثقافية الى عامل الهجرات التي ساهمت في انتقال هذه العناصر ، كتاب "**اليوت سميث**" احد رواد الاتجاه الانتشاري والمعنون ب In the begening حاول فيه توضيح مسار انتقال عنصر ثقافي من منطقة إلى أخرى ، انه نتاج تلك الحركية البشرية التي شهدها ويشهدها العالم منذ القديم. والى غاية العقد الثالث من القرن العشرين لم يشهد موضوع الهجرة اهتماما كبيرا من لدن الباحثين بسبب طغيان الايديولوجيا على الصبغة العلمية ، وسيطرة النموذج اليعقوبي في فرنسا على الدراسات الإنسانية . سننتظر إسهامات **مدرسة شيكاغو** السوسيولوجية في بداية العقد الثالث من القرن العشرين لنرى اهتماما ورغبة واضحة في دراسة الهجرة بكل تجلياتها المختلفة . إن ما عاشته مدينة شيكاغو من انحراف وجريمة هو الذي دفع الباحثين إلى النزول إلى الشارع والإصغاء إلى ما يقوله الناس ، فالمقاربة الميدانية هي التي منحت لمدرسة شيكاغو صخبها فكتاب "**ويليام توماس**" و"**فلوريان زنينكي**" المعنون ب"**الفلاح البولوني في أوروبا وأمريكا**" بقى إلى غاية الآن من الكلاسيكيات الرائعة في مجال انتروبولوجيا الهجرة. وإذا كان الهم الأول للانتروبولوجيين الكلاسيكيين هو الغوص في أسرار المجتمعات البدائية ، فان هم انتروبولوجيا نهاية النصف الأول من القرن العشرين هو فهم المجتمعات الآنية وتتبع جل تحولاتها ومعانيها ، وستحمل مجلة " (*) على عاتقها مهمة البحث في المعاني الانتروبولوجية الكبرى التي تضفيها الجماعات على أفعالها ومنها فعل الهجرة ، "**رالف لينتون**" الانتروبولوجي الأمريكي صاحب النزعة الثقافية النسبية هو كذلك حاول تتبع الحركات البشرية عبر التاريخ ، لكن ضمن حركية اشمل ضمها كتابه الضخم

والمعنون "**بشجرة الحضارة** "الذي حوى تاريخ شعوب العالم في حلها وترحالها . إن المدينة الغربية أصبحت مسرحا تلعب فيها جل الأدوار خاصة مع التقارب الذي شهدته دول العالم مع انحسار موجة الاستعمار واستقلال دول الجنوب مما حذا بالباحثين إلى تتبع موضوع الهجرة كل ومقاربته داخل المناطق الحضرية الغربية ، لتبقى الهجرات القديمة داخل حيز علم التاريخ والآثار. في فرنسا ستشكل فترة الخمسينات والستينات من القرن العشرين بداية لدراسة الهجرة انتروبولوجيا خاصة بعد أن أصبحت فرنسا قبلة لغالبية العمال الذين كانت بلدانهم تحت السيطرة الفرنسية ، ستظهر مجموعة دراسات بمقاربة انتروبولوجية واضحة نتكلم هنا مثلا على (**) سنة 1992 م والتي حاول فيها كاتبها الانتصار لانتروبولوجيا الهجرة التي بمقدورها –حسب الكتاب– إيجاد حل للمشاكل التي تعترض المهاجرين وتجعلهم في تماس مباشر مع السلطات الغربية ، دراسة أخرى مهمة قام بها (***) ريشمون وفيها يعالج المشاكل التي تعترض المهاجرين في بلد الوصول خاصة ما تعلق منها بالاندماج .وعلى العموم يمكن القول بأنه في العقدين الأخيرين شهدت المكتبات الغربية تنوعا في المقاربات المختلفة التي تعالج فعل الهجرة ، لكن يبقى عيبها الأول هو خضوع اغلبها للايديولوجيا بطرفيها إما "**مع** " أو "**ضد**" دون نسيان وسائل الإعلام بطبيعتها الاستعجالية التي تؤثر دائما على وجهات النظر.

تعريف الهجرة :

في اللغة العربية :الهجرة من فعل "هجر" وهو من "الهجر" اي ضد الوصل .

في اللغة الفرنسية : نميز بين فعل الذي يترجم بفعل "هاجر" وبين فعل الذي يقابله فعل "تغرب " و "حن" , وبالتالي فالفعل الاول مرتبط بفعل التحرك والانتقال الجسدي من مكان الى مكان اخر , في حين الفعل الثاني متعلق اكثر بالحنين الناتج عن عملية الانتقال , اوبعبارة اخرى ف هي الهجرة , اما فيقصد بها الغربة .

اصطلاحا : هو الانتقال من بلد الى بلد بنية الاقامة الدائمة .

انواع الهجرة :يفرق الخبراء بين انواع عديدة من فعل الهجرة وفق زاوية الرؤية :

–هجرة داخلية وهجرة خارجية (انطلاقا من مبدا الحدود السياسية للدولة)

–هجرة فردية وهجرة جماعية (انطلاقا من الجماعة)

-هجرات دائمة وهجرات موسمية (انطلاقا من الزمن)

- هجرات ارادية وهجرات قصرية (فكرة الرغبة والارادة والجبر , ومنها النزوح واللجوء والتهجير)

اسباب الهجرة :

ارتبط فعل الهجرة بالتاريخ الانساني منذ اقدم العصور , تنقل لنا كتب التاريخ عن تلك الهجرات الانسانية الاولى والتي كانت من شبه الجزيرة العربية الى باقي المناطق بفعل التحولات المناخية التي طرات على المنطقة (من مناطق رطبة الى مناطق حارة) , نفس السبب كان في الهجرات التي تلتها خاصة في المراحل الاولى للانسانية (مرحلة ماقبل التاريخ) , ونتيجة لارتباط الانسان بسمة الحركة , تداخل التاريخ البشري والتبست الاصول البشرية (هل الانسان الاول من اسيا او من افريقيا).

مع اقترابنا من العصور التاريخية بدات مواهب الانسان ورغباته تطغى على رغبات الطبيعة

وبدات الحروب تفعل فعلتها في الجنس البشري , وتدفعه الى الهجرة واستبدال الاوطان , فكانت الاسباب السياسية كعوامل طرد وجذب للانسان في ان , هذا ماحدثته القبائل الجرمانية في قلب اوروبا سنة 476 م عندما اسقطت امبراطورية روما الغارقة في القدم , واسست دول اخرى ستكون الاساس لاوروبا الانية .

العوامل الاقتصادية ستكون هي الاخرى دافعة للحركة البشرية , فالجفاف والمجاعات الكبرى دائما ماتفعل فعلتها في الانتقال من ارض الى ارض , هروبا من موت محقق وبحثا عن امل في عيش يضمن الاستمرارية .لم الشمل والظروف الاجتماعية المريحة هي الاخرى ساهمت في رسم الصورة , واختلاط دماء الشعوب .الواقع في هذه الحالة لايهم بقدر ماتهم الصورة التي رسمت في مخيلة الافراد والجماعات , ان الفرد الذي يريد ان يهاجر يصدق فقط مايريد ان يصدقه , انه مسار نفسي غاية في التعقيد تكون نهايته عادة في بلد اخر ربما هو "الدرادو مفقود" اوجحيم يترصد كل غريب اومهاجر "

موضوع الهجرة في العلوم الانسانية والاجتماعية :

حاولت العلوم التي اهتمت بالانسان ككائن اجتماعي وثقافي دراسة فعل الحركة والانتقال من ارض الى ارض , وفهم هذه السيرورة المعقدة في جل مظاهرها الانسانية :

علم التاريخ :يهتم هذا العلم بدراسة ماضي الافراد والجماعات , ومحاولة ايجاد قوانين انسانية ثابتة تسير الفعل البشري , وانطلاقا من محاولته السيطرة على كل احداث الماضي , اهتم بموضوع الجرات الانسانية وافرد لها المؤرخون مئات الكتب , خاصة وان لها علاقة وطيدة بانقلابات تاريخية كبرى كسقوط روما (476 م), هجرة المورسكيين من اسبانيا الى شمال افريقيا (بعد سقوط غرناطة سنة 1492م) , او ستعمار العالم الجديد (بعد 1492م) , ان المقاربة التاريخية للهجرة تتركز حول تاثيراتها على الشان السياسي والاقتصادي ,وليس لذاتها , ان المؤرخ ينظر الى الهجرة كاعداد وافدة واخرى خارجة , انها موضوع مهم باعتباره متعلق بمواضيع اهم كانت من صميم عمل المؤرخ.

علم النفس :نظر علماء النفس الى الانسان كمحصلة لعدة عوامل منها ذاتية ومنها ماهو ترجمة لعوامل موضوعية خارجية تتجاوز الذات الى كل ماهو "اخر" , هذا "الاخر" سيكون هو المهاجر الاتي من منطقة اخرى , من هذه الزاوية سيحاول علماء النفس تتبع سلوكات "الاخر" خاصة في فترة تاريخية تميزت بالتعصب العرقي و"التمركز الاثني "الذي يلغي كل انسانية الاخر ويسقط عليه صفات قريبة من التوحش والهمجية , انه يجسد "الشر" في اقصى تجلياته , هنا طرح سؤال حول اصل الشرور والافات التي انتشرت في الغرب خاصة بعد كل ازمة (الحرب العالمية الاولى 1914م–الازمة الاقتصادية العالمية 1928م–الحرب العالمية الثانية 1929م) , العنصريون ارجعوا المصدر الى النفس والى جينات المهاجرين الذين افسدوا الحياة وعكروا صفو العيش , ان الحل يكمن فقط في طرد هم ومنعهم من دخول الغرب , في المقابل ركز مجموعة من الباحثين على دور العوامل الثقافية والاجتماعية في هذه الافات , ولمعالجتها وجب فهم نفسية المهاجرين في بيئتهم الجديدة , ان تغيير المكان صعب جدا للبعض ويؤدي الى امراض عديدة مثل "الرهاب " و "انفصام الشخصية" و "التقوقع" و "الكبت "...

علم الاجتماع : برز علم الاجتماع في القرن التاسع عشر على يد "اوغست كونت" الذي حاول وضع قوانين ثابتة لحركية المجتمع على غرار قوانين العلوم الفيزيائية , ان منهج الكم هو الذي سيقود هذا العلم الناشئ الى الغوص في قلب المجتمعات الغربية خاصة في فترة مابعد الثورة الصناعية والتي تميزت بفروقات اجتماعية رهيبة بين مالكين ومملوكين . في الولايات المتحدة ونتيجة للحرب العالمية الاولى (1914*1918) اصبحت قبلة للمهاجرين الاتين من اوروبا لتحسين ظروف العيش , مدينة شيكاغو ستكون مسرحا لاقليات مختلفة كانت نتيجتها المباشرة افات اجتماعية خطيرة ستنعكس سلبا على الحياة الحظرية لشيكاغو , مما دفع بمجموعة من الباحثين الى النزول الى الشوارع با لاعتماد على تقنية الملاحظة بالمشاركة لفهم حركية هؤلاء المهاجرين وجملة

افعالهم ' لقد درسوا الفلاحين البولونيين كما درسوا الاقليات السوداء ' ان المشكل لايكمن في الجينات , انه مشكل تكيف مع البيئة الجديدة .في فرنسا المقاربة كانت مختلفة وحتى طبيعة الهجرة مختلفة , ان جل الوافدين كانوا من المستعمرات الفرنسية القديمة (شمال افريقيا –الهند الصينية –افريقيا السوداء..) ان عقدة الغالب والمغلوب ستبقى راسخة , دون نسيان العوامل الثقافية من لغة ودين وتاريخ مختلف , الحلول كانت عاجلة للقضاء على مشاكل الهجرة يجب ان تطبق سياسة تذويب العنصر الدخيل , "لكي تبقى في فرنسا يجب ان تذوب كليا مع الثقافة الجديدة" كان هذا شعار الجمهوريات الفرنسية المتعاقبة , لكن النتائج كانت وخيمة , بعد ثلاثة اجيال , وبعد سياسات اجتثاث الهوية لم تستطع فرنسا خلق مواطن فرنسي بمبادئ فرنسية , ولم تستطع اجيال المهاجرين نسيان اصولها , انه "الغياب المزدوج "بتعبير عبد المالك صياد.

الهجرة في التراث الغربي وفي التراث العربي :

الهجرة في اللغة العربية تعني االهجر وهوضد الوصل , انه معنى يوحي بعلاقة انقطعت بين شخص وشخص او شخص وجماعة , في حين المعنى في اللغة الفرنسية له دلالة انتقال جسد وتغيير مكان . هذا الاختلاف في الدلالة يعود الى اختلاف الاوليات عبر التاريخ , والى علاقة الانسان بالارض واختلافها بين الانسان الغربي والانسان العربي, فالهجرة في التراث الغربي هي هجرة الاوطان والبلدان , لان الحدود تبقى ثابتة(باختلافات بسيطة) ان فكرة الوطن قديمة في مفهوم الانسان الغربي , كما ان الجماعة وروحها وسيطرتها على قرارات الافراد اندثرت مع الانتقال من الاقطاع الى الراسمالية والتي دقت اخر مسمار في نعش قيم القبيلة .

في الثقافة العربية الامر مختلف ان الهجر هو هجر الاحباب , الجماعة مقدسة ,الارض ليست كذلك , موطن القبيلة اليوم هنا غدا في مكان اخر, مما يجعل العلاقة جد خفيفة تنشا بين الانسان والتراب بذكرياته ,لان عامل الزمن في هذه الحالة جد مهم .ان الحنين الى الوطن في الثقافة العربية تعود جذوره الى العصور الحديثة مع ظهور مايسمى بالدولة الوطنية الموغلة في رمزية المكان والزمان , وبالتالي المقاربة يجب ان تختلف من فضاء ثقافي الى فضاء ثقافي اخر وفق الخصوصيات المختلفة .

تاريخ الهجرة الجزائرية :

وجب بداية ان نشير الى اختلاف التمثلات الجماعية لفعل الهجرة في المجتمع الجزائري بين الماضي والحاضر(من نهاية الثمانينات من القرن العشرين) , ان فعل الهجرة وترك الارض عند الجزائري في القديم كان ينظر اليه بازدراء , انه فعل مشين مرتبط بالجوع , بغياب الشرف والاصل, اما الان فالفعل ينظر اليه بنوع من

الاحترام (انه ميغري) ان الرسمال الرمزي بتعبير بيير بورديو فعل فعلته , كما ان سنوات الثمانينات والتسعينات والتي عرفت فيها الجزائر ازمة متعددة الاشكال زادت من ثراء هذا الرسمال , ان البعد يتعدى المادة الى اشياء اخرى من صنع المخيال الجمعي .

تاريخيا تتحدث الكتب عن سنة 1832م كبداية لهجرات الانسان الجزائري في العصور الحديثة , انها هجرات اتت في خضم الاحتلال الفرنسي للجزائر , مجموعة من الجزائريين من الغرب الجزائري اتخذوا من المغرب الاقصى نقطة اتكاء للهروب من البطش الفرنسي , الخمسينات والستينات والسبعينات من القرن التاسع عشر ستشهد هجرات عديدة سواء الى المغرب , تونس اوالى سوريا مع نفي الامير عبد القادر اليها , العامل المشترك بين كل هذه الهجرات ان بلد الوصول مسلم , وهو شئ منطقي مادام ان فقهاء الاسلام في تلك الفترة حرموا الهجرة الى بلاد الكفار. 1871م شهدت اندلاع مقاومة المقراني والتي كان من نتائجها التهجير القصري والنفي لالاف من الجزائريين الى كاليدوني , انه حدث ملئ بالرمزية مازال احفاد الجزائريين يتناقلوه بمرارته الى الان , ان فعل النفي اهر عمق ارتباط الجزائري بالارض وبابناء الارض.

الهجرة الى فرنسا يؤرخ لها مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين خاصة من منطقة القبائل نتيجة لظروف اجتماعية واقتصادية كارثية دفعت بالجماعة الى انتداب افراد من رحمها اضمان استمرارية العيش هنا في الجزائر , ان قرار الهجرة في هذه الفترة لم يكن قرار فردي بل قرار للجماعة وباهداف غاية في الوضوح , انها سمات الجيل الاول للمهاجرين الجزائريين –حسب عبد المالك صياد– هذا الجيل سيزداد عدد افراده خاصة بعد الحرب العالمية الاولى نتيجة لرغبة فلرنسا في اليد العاملة الرخيسة لمصانعها.

مقاربة عبد المالك صياد لموضوع الهجرة :

عبد المالك صياد سوسيولوجي وانتروبولوجي جزائري , اشتغل مع "بيير بورديو" على عدة مواضيع خاصة حول علاقة الانسان الجزائري بالارض , انكب على دراسة حياة المهاجرين حيث عايش ظروفهم لاكثر من ثلاثين سنة , كانت نتيجتها مقاربة جديدة لموضوع انتروبولوجيا الهجرة والتي اتت في كتابه الرائع الغياب المزدوج , كان له الفضل في اثراء مفاهيم انتروبولوجيا الهجرة كمطلحي الغياب المزدوج و الاجيال الثلاثة . تكمن مقاربة صياد للهجرة في كونه نظرالى الهجرة كمسار كلي يبدا من لحظة الميلاد في بلد الانطلاق وحتى بلد الوصول , ان الهجرة حسب صياد ليست فقط ارقام وافدة واخرى خارجة , انها مشاعر وعواطف وعلاقات انسانية وثقافية نسجت خيوطها منذ االولادة , ان صياد يركز على كلمة "مسار" للدلالة على دور التاريخ ودور

العناصر الثقافية في تكوين شخصية المهاجر , انه بذلك يوجه نقد لاذع لدعاة القطيعة مع "الماقبل"والذين يريدون ان يختزلوا حياة المهاجر في الايام التي يعيشها في بلد الوصول .

الاجيال الثلاثة عند عبد المالك صياد :ميز عبد المالك صياد في دراسته للهجرة الجزائرية ثلاثة اجيال من المهاجرين وفق سمات مختلفة :

1-الجيل الاول : زمنيا يبتدئ من نهاية القرن التاسع عشر الى الحرب العالمية الثانية (1945م) ويتميز بطغيان قرار الجماعة على الفرد , فالهجرة هنا تريدها الجماعة لاغراض واضحة وباهداف محددة , ولمدة كذلك متفق عليها , فالمهاجر هنا ليس سوى مندوب .

2-الجيل الثاني : من نهاية الحرب العالمية الثانية الى سنة 1962م وهنا خفت نوعا ما قيود الجماعة , كما ارتفعت درجة الوعي الثقافي والسياسي .

3-الجيل الثالث : من استقلال الجزائر الى فترة الثمانينات وتميز هذا الجيل بتحرره الكلي من هيمنة الجماعة , كما شهد ت مرحلة هذا الجيل هجرة العائلات , والاستقرار النهائي بفرنسا .

مفهوم الغياب المزدوج :

يعبر عنه عبد المالك صياد بعبارة "ليس هنا , وليس هناك" انه التائه الغريب , الذي لم يفهم سبب استمراريته هنا رغم قراره بالمغادرة , انه يمني النفس لكن لم يستطع ان يترك فرنسا , بين نفسه مل حياة الغربة , لكن بمجرد ان يسال هنا في الجزائر عن احواله "يقول لباس مايخصني والو" , ان "الكذبة الجماعية " بتعبير صياد هي التي تضمن مواجهن محن والام الغربة .

المقاربة الامريكية لموضوع الهجرة : ساهمت درسة شيكاغو السوسيولوجية في العشرينات من القرن الماضي في الدفع بدراسات الهجرة الى اوجها , ورغم ارتباطها بالانتروبولوجيا الحضرية (تنظر الى الهجرة في اطار المدينة , يعني جزء من الكل) الا ان بحوثها الميدانية التي اعتمدت على الملاحظة بالمشاركة ساهمت في بلورة تصور لانتروبولوجيا الهجرة في ما بعد . وتكمن خصوصية شيكاغو في كونها مدينة مفتوحة على جل الاثنيات والاعراق , مما سمح لباحثيها في تلمس عمق المشكل , واقتراح مجموعة تصورات (نذكر هنا نظرية بارك- نظرية زننيكي الخاصة بالمهاجرين البولونيين).

المدرسة الفرنسية وانتروبولوجيا الهجرة :رغم أن فرنسا شهدت منذ البداية ألاف من المهاجرين , إلا أن دراسات انثروبولوجيا الهجرة تأخرت في الظهور لمجموعة أسباب :

1/نموذج الدولة الأمة الذي تشكلت عليه الدولة الفرنسية الحديثة ,والذي لم يستطع استيعاب فكرة المختلف , خاصة من الناحية اللغوية .

2/التاريخ السياسي والفلسفي للنظام الجمهوري الفرنسي(تكلم عنه كثيرا الفيلسوف الكسيس توكفيل).

3/ التاريخ الاستعماري الفرنسي الذي لم يستوعب المختلف جزء من الانا" الفرنسي .

المشاكل الاجتماعية والسياسية التي عاشتها فرنسا في العقود الثلاثة الاخيرة , هي التي جعلت الانتروبولوجيين ينكبون على دراسة ظاهرة الهجرة انتروبولوجيا (عبد المالك صياد شكل استثناء) خاصة مع فشل الدولة الفرنسية في التعامل مع ابنائها , لكن المختلفين عنها ثقافيا (ابناء المهاجرين)(انظر عبد المالك صياد : الغياب المزدوج)

العرق والانتروبولوجيا : ارتبطت الانتروبولوجيا لفترة طويلة بدراسة الفروقات بين المجموعات البشرية , انها لم تخرج من السياق العام الذي تدور حوله المعارف الانسانية بتجلياتها المختلفة , فما يسمى الآن "المساواة" بين البشر كان في فترات سابقة ضرب من الجنون , هكذا كانت تؤكد جل الحضارات .بالعودة إلى التاريخ نجد أن أولى الشعوب التي لجأت إلى تصنيفات للآخر على أساس النوع هي الحضارة المصرية حوالي 1350ق م (راس اي راسيزم : جون ديلوني واخرون) وهذا عندما قسمت البشر إلى أربع أقسام انطلاقا من اللون (الاحمر للمصريين , الاصفر للاسيويين , الأبيض لشعوب الشمال , والأسود الأفارقة) إن هذا التقسيم ينظر اليه من طرف المختصين على انه كبداية لتبلور مفهوم الغيرية , وما صاحبه من أحكام جزافية مسبقة . الإغريق بعد ذلك اطلقو عن "الآخر المختلف" صفة "بربري" انه ذلك الشخص الذي لا علاقة له بلغة وفلسفة اليونان , انه "الآخر" الذي لا يستطيع أن يصبح "انا" . المؤرخ الروماني "تاسيت" (55م _120م) لم تمنعه براعته في علم التاريخ في أن يطلق أحكام , ويصف "شعوب الجرمان بالقذارة , والكسل والضعف ,لقد شيطن "الآخر" وأصبح ينظر اليه كمهدد لوجود "الأنا" , خاصة مع تلقف السياسيين وأصحاب الايديولوجيات لهذا الخيط لأنهم عبر إظهار الآخر بأنه رمز لكل الشر يبررون الحروب والصراعات ومسارات القتل. فقط وجبت الاشارة بان الخوف من الآخر واحتقاره لم يكن في هذه الفترة متعلق بلون لو بعرق معين , كما انه غير مرتبط بالحدود الجغرافية , فقط انه إستراتيجية يلجأ إليها لتحقيق مصالح سياسية انية.

كلمة "عرق" أصلها من اللغة العربية والتي تعني "رأس" والذي بدأ استعماله في نهاية القرن 14 م في جنوب اسبانيا وبعد ذلك في كل من فرنسا وألمانيا , ان هذه الكلمة سيفعل استعمالها كثيرا خاصة مع بداية الكشوفات الأوروبية , والتي ألقت "بالانا الغربي" في مجاهيل الكرة الأرضية المتعددة , خاصة مع تفوق الغرب واصطدامه بعوالم تعيش في بدايات التاريخ , نتكلم هنا عن الهنود الحمر في أمريكا , والأفارقة الذين استخدموا كعبيد لتلبية أغراض البيض . إن الاستعباد في هذه المرحلة سيخلق جملة تمثلات في المخيال الغربي متعلقة بالعرق الأسود "منذ هذه اللحظة سينظر إلى السود على إنهم خلقوا ليكونوا عبيدا" وسيلجأ إلى العلم لتبرير مثل هذه الرؤى والممارسات . ابتداء من القرن الثامن عشر ستبرز مدرستان للفكر تحاول كل واحدة منها الاجتهاد في الأصل الإنساني : 1-الإنسان له أصل واحد بعود إلى "ادم "و "حواء" وهي قراءة دينية حرفية للنص 2- المجموعات الإنسانية الكبرى ذات أصل مخالف .

ورغم أن المدرسة الأولى دينية إلا أنها منغلقة على "اناها" وتحاول أن تبرر الاختلاف , باعتباره من خلق الله , وهو غير قابل للتعديل , بمعنى أخر إن الفروقات في الأساس بيولوجية . أما المدرسة الثانية تحاول أن تؤكد على فكرة "الانتقاء الطبيعي" .

القرن الثامن عشر سيكون قرن بداية تبلور النظريات العرقية التي تتخذ العلم كتبرير لممارساتها , "اني "في كتابه النظام الطبيعي ميز بين "الأوروبيين البيض" "الأمريكيين الحمر" "الأسيويين الصفر "" والأفارقة السود" , هذا التقسيم لم يتوقف هنا , بل تعداه إلى إضفاء أحكام خلقية وربطها بالأنواع السابقة : فالأمريكيين سيئو الخلق , مطيعين , تتحكم فيهم العادات , الأفارقة كسالى ...الخ في حين الأوروبي هو الإنسان الكامل.

وستتوالى النظريات والآراء العرقية بعد ذلك معتمدة على قراءة تأويلية العلوم الحديثة , سنة 1775م (جون فريديريك بلومباخ) قسم المجموعات البشرية إلى أربع كبرى ثم بعد ذلك إلى خمس , وسيستعمل "العرق" تارة و"النوع" تارة أخرى لتوصيف الاختلاف , رغم أن الزمن سينتصر للمصطلح الأول .ورغم كل ما قيل عن داروين ونظرياته , إلا أن هذا الأخير أكد مرارا أننا لا نستطيع أن نقوم بتمييز دقيق بين الأعراق المختلفة نتيجة التداخل والاحتكاك الدائم .

الكونت "غوبينو " الفرنسي سينشر سنة 1855م مؤلفه "مقالة في اللامساوات العرقية بين البشر" ورغم تجاهله في البداية إلا انه سيشكل بعد ذلك أساس الأيديولوجية العرقية في أوروبا ,خاصة وانه ركز على فكرة صفاء الدم

" أو "العرق" وربطها بفكرة التطور الحضاري , وستؤدي هذه النظريات إلى أهوال كبرى كانت أعظم تجلياتها الحربين العالميتين الأولى والثانية .

مع بداية القرن العشرين سيعاد التركيز على موضوع صفاء العرق خاصة مع ربطه بحركات الهجرة التي اجتاحت أوروبا والولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الأولى. لقد غذت الآفات الاجتماعية والمشاكل الاقتصادية النظريات العرقية , وربط كل شئ بالآخر , أو لنقل بجيناته , إن فشله في التأقلم مع محيطه الجديد ترجم على أساس" فشل جيني" يقف كعائق امام الاندماج , هكذا قال منظروا العرق , وحاولوا الترويج له عبر الاستعانة دوما بالتفسيرات البيولوجية للتأكيد على صحة ما ذهبوا اليه , وفرضيتهم دوما هي ان "الاعراق وجدوا في الماضي على حالتهم النقية , قبل ان يفسدهم الاختلاط الناتج عن الهجرات " , لذا سنلاحظ ذلك التحاشي الذي تعرض له المهاجر في بلدان الاستقبال وكأنه يحمل "الأوساخ" , كما ان "الغيطوهات" عززت ذلك الشعور بالحدود الفاصلة بين الاثنيات المختلفة (الاطلاع اكثر على مفهوم العرق ارجع الى قاموس الاثنولوجيا والانثروبولوجيا لميشال ايزار ص 648).

فرانز بواز والنسبية الثقافية : ساهم الانتروبولوجي الأمريكي ذو الأصل الألماني "فرانز بواز" في تعديل نظرة الأكاديميين إلى الأجناس البشرية ,من خلال دراساته الميدانية التي قام بها في قبائل الهنود الحمر في الولايات المتحدة ,والتي من خلالها توصل إلى استنتاج مفاده أن الفروقات من صنع البيئة والثقافة ولا دخل للعنصر البيولوجي في ذلك , وهو رأي ساهم في قلب جملة المسلمات التي كان يتكئ عليها الفكر الغربي , خاصة وان تلامذته مشوا على دربه , ونشروا افكاره , نستحضر هنا كل من "مرغريت ميد" و "روث بنديكت". (الاحالة الى قاموس الاثنولوجيا والانثروبولوجيا ص 909)

التمييزالعنصري : يقصد به التمييز بين البشر على أساس الدين أو الجنس أو العرق , ورغم ان الممارسة قديمة قدم التعاملات البشرية , إلا أن المصطلح حديث نسبيا وارتبط ارتباطا وثيقا في المخيال الجمعي العالمي بالتمييز الذي تعرض له السود في جنوب إفريقيا الذي عرف بمصطلح الابارتايد " وكذلك سود الولايات المتحدة الأمريكية في نهاية النصف الاول وبداية النصف الثاني من القرن العشرين . ورغم أن أساس تكون الولايات المتحدة قائم على التنوع الاثني , الا أن التمثلات التي حملها المخيال عن السود ارتبطت بمرحلة العبودية الطويلة التي مروا بها , والتي تغذت من أعمال أكاديمية وأيديولوجية , كانت تنظر إلى الأسود باعتباره إنسان من درجة ثانية او ثالثة , والفضل في تغير النظرة وتجند الرأي العام العالمي يعود بدرجة كبيرة الى التحولات التي عاشها العالم بعد الحرب العالمية الثانية , والتي صورت على انها حرب ضد النازية العرقية . ان خلخلة

المركز بمسلماته ادى الى اعادة الاعتبار لكل ماعتبر لمدة طويلة "هامشي" , وظهر تيارات فكرية تبحث في زمنية وراهنية العلاقات العرقية في عالم مابعد الحرب العالمية الثانية . صحيح ان زوال التمييز العنصري ساهم فيه الاكاديميون ورجال الفكر , لكن التحولات السياسية هي التي عجلت بتغيير النظرة , والتقريب بين البشر.(

مجموعة مفاهيم :

الشبكات الاجتماعية : من بين المفاهيم التي اشتغل عليها الانتروبولوجيين كثير مصطلح الشبكات الاجتماعية وهي تمثل مصدر ومؤهل للتكيف مع المحيط الجديد , كمصطلح ادخل في التحليل الانتروبولوجي للمجتمعات الركبة لأول مرة سنة 1954 م من طرف "بارنس" في حين في المجتمعات الحضرية يعود الفضل إلى "بوت" سنة 1957م ويقصد بها جملة العلاقات التي يقيمها المهاجر كإستراتيجية لضمان التكيف مع المحيط الجديد .

الاثنوية : أو التمركز الاثني وهو مصطلح ادخل لأول مرة سنة 1907 م من طرف العالم "و.ج.سومر" ويقصد ذلك الموقف الجماعي الخاص برفض قيم الآخر , والنظر إليه انطلاقا من تمركز الأنا , وإذا كان هذا الموقف الجماعي قديم ويعود إلى الإغريق والرومان , فان التركيز عليه برز في عصر ما بعد النهضة خاصة مع تعدد الهجرات وتداخل الأعراق مما ولد ردود أفعال عنيفة رغبة من الأنا في الحفاظ على نقائها كما تتصوره .

الاثنية : في التداول الشائع يقصد "بالاثنية "كليةلغوية ثقافية وجغرافية ذات حجم معقول , لكون عبارة "قبيلة" مخصصة بشكل عام لمجموعات ذات حجم اصغر"1 وبالتطور التاريخي ارتبط مطلح الامة بالغرب "المتحظر "في حين استعملت الاثنية لتوصيف الشعوب "الاقل تحضرا"

التثاقف : تدل كلمة "تثاقف" على الاواليات المعقدة للاحتكاك الثقافي التي تتعرض نتيجة لها مجتمعات او مجموعات اجتماعية الى ان تتمثل او يفرض عليها بعض ا وكمية الملامح القادمة من مجتمعات اخرى .وينتمي هذا المصطلح الى المدرسة الثقافوية الامريكية , وبشكل اشمل الى الفكر الاثنولوجي لستينات القرن الماضي 2.

الاقلية :اجمعت اغلب الدراسات التي تناولت مفهوم الاقلية على تعريف يشدد على التمفصل بين الاقلية والدولة الوطنية,فلا نجد تعريفا للاقلية لايخلو من وجود الدولة الوطنية كمحدد رئيسي في هذا التعريف.وكان النظر الى الاقلية لايستمد شرعيته الا من هلال وصف العلاقة بين الاقلية والدولة التي تعيش في اطارها.

فالموسوعة العالمية للاقليات تؤكد هذا الاتجاه بتقديمها لتعريف جاءفيه (الاقلية هي مجموعة تاريخية صغرى متواجدة ضمن مجموعة اكبر ومكونة لدولة فتربط معها علاقات ديناميكية تمتاز بثنائية المد والجزر)فرغم هذا الاصرار على ربط الاقلية بالنظام السياسي ضمن تعريف عام لها,فان الاقليات تختلف فيما بينها من حيث النشاة والتكوين وهو ماذكره (بيار جورج)حين ميز بين ثلاثة انواع من الاقليات :

النوع الاول:الاقليات التي تنشا على اثر الحملات المتتالية التي تشنها مجموعة من السكان على منطقة معينة بها سكان اصليون فيتم الاستيلاء على اهم الاراضي وابرز المواقع ويصبح هؤلاء الغازين اغلبية على مستوى العدد في حين يتراجع السكان الاصليين ويصبحون هم الاقلية بحكم حرب الابادة التي مورست عليهم.ومثال ذلك ماحصل للقارة الامريكية حين تم احتلالها من قبل الشعوب الاتية من اوروبا او بعض المجموعات الجبلية التي تسكن القوقاز وارمينيا والشرق الاوسط وشمال افريقيا.

النوع الثاني :الاتيان بمجموعات بشرية وتركيزها في مجال جغرافي لاتنتمي له بهدف الحمايةاو المساهمة في عملية الانتاج .فقد مثلت التجارة الثلاثية بين افريقيا واوروبا وامريكا الطريق الاهم لتركيز هذه الاقليات في امريكا الاستوائية وجزر الكاراييب وجنوب الولايات المتحدة حول قصب السكر والقطن.

النوع الثالث:الاقليات التي تنشا اثر عمليات طرد وملاحقة تتعرض لها بعض المجموعات او الشعوب لاعتبارات سياسية او اعتبارات دينية .هذه المجموعات حين تقطن بفضاء معين تحافظ على قيمها الاقتصادية والدينية والثقافية ومثال ذلك اليهود,الارمن...

الا ان الشكل الاكثر حداثة في تكوين الاقليات هو حركات اليد العاملة من الجنوب الى الشمال.

1الاحالة الى معجم الاتنولوجيا والانتروبولوجيا تحت اشراف بيار بونت وميشال ايزار, ترجمة واشراف مصباح الصمد , ط 2 , 2011

2المرجع نفسه , ص 350